

نشأة المستشرقين عند المسلمين



• د. عبد المصم عد العزيز رسلان •

دأب الكثير من المستشرقين أمثال هـ. بيكر H. Becker وكويل Quibell وكروزويل Creswell وغيرهم على الإساءة للإسلام وإبراز ضعف العرب المسلمين وعجزهم عن أن ينشئوا وحدة معمارية أو فنية بصفة عامة وتلمسوا لذلك أسباباً تخلوها، منها البيئة التي كان يعيش فيها العرب في الحاهلية والتي ما كانت — على حد زعمهم — تشتر فيهم الإبداع في الصنعة أو البناء، وإنما يكفيا القليل من الأدوات التي يستعملونها والتي كانت تجلب إليهم من أهل الحضارات الشاورة لجزيهم.^(١)

ولعل من أبرز الأشياء التي نسوا صانعتها إلى غير العرب «الشر النبوي» فقد أسهم هؤلاء المستشرقون وغيرهم في الطعن على العرب والمسلمين فيه، فمنهم من نسب صانعتها إلى شخص يوناني يقال له «باقوم» ومنهم من قال باقياس شكله من الكائنات، ومنهم من أنكر حتى نسبة اسم الشر إلى العرب وقال إنها كلمة مشتقة من الحشية، ومنهم من زعم أن اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم للشر كان مواكباً للوقت الذي صار فيه شخصية كبيرة يؤبه لها تقابل السفارات وكبار القوم.

وستحاول في هذا البحث مناقشة ما قاله هؤلاء المستشرقون، حتى تتكشف الحقيقة لدى القراء لا سيما المهتمين مهم بالحضارة الإسلامية. ثم نرسم الصورة الحقيقة لنشأة الشر عند المسلمين معتمدين في ذلك على الأسانيد الصحيحة.

أولاً - ذكر تولدكه أن هـ بيكر H. Becker يقول : «إن لفظ منبر يعنى المقعد المرتفع، وكانت هذه اللفظة تعنى التعبير لاحتغائي بشيء حديد». ويعلق تولدكه على ذلك بقوله : «إن بيكر لم يعبأ بالفرق بين اللفظين العربي والحشي الخاص بالحركات وأشار فقط إلى أن كلمة منبر العربية مستعارة من اللفظ الحشي «منبر» منبر بمعنى مقعد. وهي كلمة شائعة في الحبشية مشتقة من الفعل «منبر»^(١)»

وإذا كان المستشرق هو بـ كـ ر يقول إن كلمة «متر» أخذتها العربية عن الحبشية فإنه لم يقدم لنا دليلاً على ذلك ولم يتتبع خط سير الكلمة من حبشية إلى عربية، وهذا بالنسبة إلينا مجرد احتمال قد يصدق وقد لا يصدق، ولكننا في مقالنا ذلك سوف نحتمل أن هو الأصول الثلاثة (ب ب ب) مشتركة بين الحبشية والعربية بدليل أن كلمة «بر» بالعربية تفيد الارتقاء وكذلك كلمة «بر» حين جعلت أحد أسماء همزة، ومعنى ذلك أن هذه لأصول عربية أصلية، فإذا صح ذلك فإن اللغة العربية تكون قد صاغت كلمة «متر» عن طريق الاشتقاق المعتاد، كما فعلت الحبشية ومن معروف أن في لغات العرب المتعددة كلمات مشتركة بين مثل أسماء الإنسان وأخوته والأفعال المتعلقة بهذه الأسماء، وبعض أسماء الحيوان والأفعال المتعلقة بها، وبعض أسماء الأفعال وأحوالها، ومعنى هذا وبعض أسماء الأفعال مثل «متر» من المكوّنات المشتركة من فتح، و دس، وسكر، وما يعود إليها من أفعال مثل «صحن» و«طبخ» و«سل» (ب ب ب) لم تعد كثير من الأفعال وبعض الأسماء اللغة هاهنا، ومن الأسماء سه، وش، ثم أسماء عدد إلى عشرة. وبعدها مئة ثم بعض الأعداد (٦)

وعمل في معاهد عربية من إقامته فيه في السنة على مرفاة خاصه ، أنه سمي بذلك
لارتفاعه وعظمه ، تستوفى عديدة من مادة بر ، ما يعرف ما ذهب إليه

ثانياً يقول هـ بيكر ويويده ^١ ^٢ ^٣ ^٤ ^٥ ^٦ ^٧ ^٨ ^٩ ^{١٠} ^{١١} ^{١٢} ^{١٣} ^{١٤} ^{١٥} ^{١٦} ^{١٧} ^{١٨} ^{١٩} ^{٢٠} ^{٢١} ^{٢٢} ^{٢٣} ^{٢٤} ^{٢٥} ^{٢٦} ^{٢٧} ^{٢٨} ^{٢٩} ^{٣٠} ^{٣١} ^{٣٢} ^{٣٣} ^{٣٤} ^{٣٥} ^{٣٦} ^{٣٧} ^{٣٨} ^{٣٩} ^{٤٠} ^{٤١} ^{٤٢} ^{٤٣} ^{٤٤} ^{٤٥} ^{٤٦} ^{٤٧} ^{٤٨} ^{٤٩} ^{٥٠} ^{٥١} ^{٥٢} ^{٥٣} ^{٥٤} ^{٥٥} ^{٥٦} ^{٥٧} ^{٥٨} ^{٥٩} ^{٦٠} ^{٦١} ^{٦٢} ^{٦٣} ^{٦٤} ^{٦٥} ^{٦٦} ^{٦٧} ^{٦٨} ^{٦٩} ^{٧٠} ^{٧١} ^{٧٢} ^{٧٣} ^{٧٤} ^{٧٥} ^{٧٦} ^{٧٧} ^{٧٨} ^{٧٩} ^{٨٠} ^{٨١} ^{٨٢} ^{٨٣} ^{٨٤} ^{٨٥} ^{٨٦} ^{٨٧} ^{٨٨} ^{٨٩} ^{٩٠} ^{٩١} ^{٩٢} ^{٩٣} ^{٩٤} ^{٩٥} ^{٩٦} ^{٩٧} ^{٩٨} ^{٩٩} ^{١٠٠} ^{١٠١} ^{١٠٢} ^{١٠٣} ^{١٠٤} ^{١٠٥} ^{١٠٦} ^{١٠٧} ^{١٠٨} ^{١٠٩} ^{١١٠} ^{١١١} ^{١١٢} ^{١١٣} ^{١١٤} ^{١١٥} ^{١١٦} ^{١١٧} ^{١١٨} ^{١١٩} ^{١٢٠} ^{١٢١} ^{١٢٢} ^{١٢٣} ^{١٢٤} ^{١٢٥} ^{١٢٦} ^{١٢٧} ^{١٢٨} ^{١٢٩} ^{١٣٠} ^{١٣١} ^{١٣٢} ^{١٣٣} ^{١٣٤} ^{١٣٥} ^{١٣٦} ^{١٣٧} ^{١٣٨} ^{١٣٩} ^{١٤٠} ^{١٤١} ^{١٤٢} ^{١٤٣} ^{١٤٤} ^{١٤٥} ^{١٤٦} ^{١٤٧} ^{١٤٨} ^{١٤٩} ^{١٥٠} ^{١٥١} ^{١٥٢} ^{١٥٣} ^{١٥٤} ^{١٥٥} ^{١٥٦} ^{١٥٧} ^{١٥٨} ^{١٥٩} ^{١٦٠} ^{١٦١} ^{١٦٢} ^{١٦٣} ^{١٦٤} ^{١٦٥} ^{١٦٦} ^{١٦٧} ^{١٦٨} ^{١٦٩} ^{١٧٠} ^{١٧١} ^{١٧٢} ^{١٧٣} ^{١٧٤} ^{١٧٥} ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨}

جاءت بعض من أتت قبلة في هذا المسجد كالمسجد من الحج متحدثين
جاءت بعض فقهاء مسجد بني أمية في هذا المسجد كالمسجد من الحج متحدثين
في ربهما عز وجل عني وبغيره من هذه القبلة عبد الله بن عبد الله
وحصل موافقه من هذا إلى أن بقية أبي قحافة (رضي الله عنه) جميع عمره و...
كيسه لبيحه (في كسبه) لا يثبت عليه أن كان عليه شكل الأصلي من كسبه
صلى الله عليه وسلم ولا يوثق أن هناك رجلاً من هذه كسبه لبيحه (في كسبه)
كسبه ثوبين في هذا المسجد من هذا المسجد في بعض أوصافه (في كسبه)
له هذا حارة لبيحه (في كسبه)

ومن جهة أخرى في الروايات نسخة من السند يمكن عدم رآها (في كسبه)
أولاً لا نعلم إلا في حديث واحد في هذا المسجد (في كسبه) لا يستطيع
من هذا كل هذا فضلاً عن أنها تطلق من بعضها ومن هذا أن في هذا المسجد
بعض من خاص بقره من حديث (في كسبه) من نرى رآه في كسبه نحوه (في كسبه)
مع خلاف في هذا (في كسبه) لا يثبت في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه
عن من كان في هذا المسجد (في كسبه) لا يثبت في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه
وله كان (في كسبه) بعد هذه (في كسبه) لا يثبت في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه
أنه حمل إليه من بعض كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه
الله من سعد في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه
فلم يزل هذا المسجد حتى (في كسبه) لا يثبت في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه
ثانياً أن هناك تعارض فيما ذكره من حول ثلاثة أنفس، فهم في الوقت الذي سبقوا
فيه روايات في ذكرها عن وجود من في مسجد عبد الله بن مسعود (في كسبه) لا يثبت في كسبه
أنه لا يعرف من أقدم من بقي من قره من تراث بعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم
ونفرد أن نرى رآه (في كسبه) لا يثبت في كسبه (في كسبه) لا يثبت في كسبه
عن قره من تراث ما يقصه أو يثبت من الحديد في سنة أربع وتسعين قبل أن لا يثبت
اليوم في حد من لأحد أقدم من بعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم (في كسبه)

فكيف بعد هذا لأصحاب في روايات أن بعض من ما فيه هؤلاء المؤرخون في
شأن من أعم أنه جاء من كسبه؟ فأول ما أن سقط هذه الروايات التي تصبدها كرويل

وساقها لنا على أنها حقائق. ولعله من المعروف عنه أنه من أولئك الذين عرفوا أنهم في العرب وإيمانهم بالقصور عن الإبداع.

ثالثاً - يرى بيكر ويشاركه رأيي Crowell أن المنبر (منبر) الذي كان في البداية مقعداً ذو درجتين، كان يتخلو من به دلالة دينية في المرحلة مبكرة من الإسلام، فقد كان مجرد مكان يجلس عليه النبي وخطبته في الاجتماعات أو الأعياد ولذا كان نوعاً من أنواع العرش المرتفع الذي يترفع عليه رأس السلطة الدينية في المجتمع،^(٢٣)

وللرد على هذا الرأي نقول إن هذين المستشرقين لو كانا دقيقين في أحكامهما لتفصيا ما عمله الرسول صلى الله عليه وسلم على المنبر. ففي حديث لأبي حازم بن دينار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (.. ثم رأيت رسول الله (ﷺ) صلى عليها (أعواد المنبر فور وصولها إلى المسجد) وكثر وهو عليها ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القهقري فسجد في أصل المنبر ثم عاد. فلما فرغ أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنما صنعت هذا لتأنؤا، ولتعلموا صلاتي،^(٢٤) وما هو معروف أن النبي (ﷺ) كان يقطع خطبته للحاجة تعرض والسؤال لأحد من أصحابه. ثم يعود إلى خطبته وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة ثم يعود فيتمها (الخطبة) كما نزل لأحد الحسن والحسين (رافعة بالطفلين) يعثران في قميصهما ثم رقى بهما المنبر فأنتم خطبته^(٢٥)

كما عثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يوجه المصلين وهو على المنبر فعن عمرو بن دينار قال سمعت جابر بن عبد الله يقول دخل رجل المسجد يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخطب قال أصليت؟ قال لا قال فصل ركعتين^(٢٦)

ولو أراد هؤلاء المستشرقون العدل في القول وتحري الدقة والصدق لعرفوا أن العرض من اتخاذ المنبر كان إجماع الناس لما كثروا بالمسجد فقد أخبرنا مسلم بن إبراهيم قال سمعت الحسن يقول لما أن قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جعل يسند ظهره إلى خشبة ويمدح الناس فكثروا حوله فأراد النبي أن يسمعهم فقال ابنوا شيئاً ارتفع عليه،^(٢٧)

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصعد المنبر إذا ادغم به خطب يحدث الناس فيه كما حدث في قصة الإفك المعروفة، فقد قام النبي (ﷺ) من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال رسول الله (ﷺ) وهو على المنبر من يعذري من رجل بلعني

أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت في أهل إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهل إلا معي .. (٢٨)

ولعل قصور معرفة المستشرقين بطبيعة الدين الإسلامي الذي وسع كل أمور الدين والدنيا فظلمها فلم يقتصر على أمور العبادات كما في الأديان الأخرى بل شمل المعاملات بأنواعها المختلفة بين بني البشر مؤمنين وغير مؤمنين فضلاً عن العقائد ونظم الحكم وغير ذلك ما جعل المستشرقين يعدون الصبغة الدينية في نظرهم عن المنبر النبوي.

وليت الأمر اقتصر على دور المستشرقين في الطعن على العرب والمسلمين ونبيهم ومحاولة التشكيك - على الأقل - في مقدرتهم على الإبداع والتطور في الصناعات المختلفة التي هي من شأن سائر بني البشر بل تجاوز الأمر هذا الحد فانزلق بعض الأساتذة من المسلمين إلى ما ينشره المستشرقون فأخذوا يرددون مقالة هؤلاء مبهوتين بما بلغوه من صيت في ميدان لعلم والبحث والتدقيق دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث والتفكير فيما قاله هؤلاء المستشرقون من دس على المسلمين ونبيهم. ولو أنه للحقيقة نرى أن بعض الباحثين المسلمين قد نهضوا ليدفعوا بعض هذه المقترحات إلا أنهم للأسف قد وقعوا بدورهم في بعض الأخطاء لغيباب بعض الحقائق عنهم مما جعلهم يتكيفون الطريق ويتأون عن التصور الصحيح للأمور وسنوق بعض الأمثلة للتدليل على ما ذهبنا إليه =

١ - يقول الدكتور حسين مؤنس - بعدما بنى المسلمون مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم كان منبره أول الأمر مجرد ارتفاع في الأرض إلى جانب موضع اقتراب، ويقول البخاري في كتاب الصلاة - إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على منبره وهذا لا يمكن إذا كان المنبر على شكله الحالي أو قريباً منه ولا بد له أن كان مساحة مرتفعة تكفي لإقامة الصلاة عليها وربما كانت تبيت من الآخرة (٢٩)

ولو كلف الدكتور حسين مؤنس نفسه مؤنة البحث في حديث صحيح البخاري في باب الخطبة على المنبر لوجد الإجابة الصحيحة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى فعلاً على المنبر ذي الثلاث مراق بكيفية معية وهي داء ما يمكن المصل أن يقوم به من حركات عند الركوع وما يمكن أن يفوه به من حركات عند السجود وحدد لكل من الركوع والسجود موضعه وطريقته وأدائه (٣٠)

ويُتَابع حسن مؤسس الكلام فيقول: «أولادنا عن مير رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض تفاصيل، فيقال إن رسول الله (ﷺ) كان يقوم أول الأمر إلى حديق في المسجد في إن حوّل أحد حدائق الحقل التي كانت تقوم مقدم الأعمدة في حرمه فسقوف وأن رسول صلى الله عليه وسلم ما يدعى قال له نعيم الداري ألا أتخذ لك مير يجمع عظامك أو يجعل عظامك قال نعم فأتخذ مير من مرقايتين». ويتابع حسن مؤسس كلامه فيقول: «وفد وي بجاري هذا الأثر في صحيح وأبو دود في سنن. وبغيرها معنى هذا الحديث لأن «بذو» كبر وأسَنَ والرسول (ﷺ) كانت سنة في ذلك الحين ما بين ٥٥ ٥٧ سنة لأن المير صنع في المسجد بعد بناء المسجد قبله. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ظهر عليه ما يجعل نعيماً الداري يعرض عليه أن يصنع له منيراً يرمي عظامه. والحقيقة أن المنير عمل في المسجد بعد إنشاء المسجد بستين أو ثلاث دون أن يكون الداعي لذلك كبير سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاجته إلى ما يرمي عظامه»^(٣١).

وملاحظاتنا على ما قاله الدكتور مؤسس هي

- أ - أن المنير الذي جاء في الحديث إنما هو المنير الحشوي وهو لم يصنع قبل العام الثامن للهجرة على الأرجح إن لم يكن بعد ذلك لأمر من أهمها أسماء الأشخاص التي جاءت في الإسناد لأن نعيماً الداري قدم المدينة سنة تسع للهجرة^(٣٢).
- ب - أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في أواخر أيامه وقبل انخاف المنير الحشوي كان يشكو ألماً في فخذه أو رجله^(٣٣) وكان قد تدن فعلاً.

(٢) يقول الدكتور زكي محمد حسن: «والواقع أن الشكل الذي صار إليه المنير في المساجد الإسلامية قد يكون مستمداً من المنار المسيحية. وقد عثر كويل Quibell في حفارته بدمر الأنا أرميا بسفارة (بمصر) على منير حجري من القرن السادس الميلادي يحطاً لا نكاد نشك في صحة هذا الرأي وهذا المنير الحجري محفوظ حالياً بالمتحف القبطي بالقاهرة»^(٣٤) (لوحة رقم ١) ولعل فيما سبق أن ذكرناه من رد سوفاجيه على هذه المقالة يكفي لنفي هذا الرأي. (انظر البند رابعاً).

والآن وبعد أن استعرضنا آراء بعض المشرقين وتلاميذهم من المسلمين والعرب سنحاول القيام بدراسة تبعية للخطوات التي مر بها المنير في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نفق مطمئنين على الحقيقة.

دراسة تنبؤية للخطوات التي مر بها المنبر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

يقول ابن القيم في كتابه "إعادة نصب صلي الله عليه وسلم على الأرض وعلى المنبر وعلى شجرة" (١٣١)

ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب على راحته يوم الحز ١٣١١ أما خطبه على الأرض والمنبر فكانت في المسجد ويمكن أن تعرف على مرحلة التي خطب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم على منبر من استقراء ما يلى

- المرحلة الأولى

الجذع : كان المسجد مسقوفاً على جذوع من غل فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها (١٣٧) ويعني هذا أن الجذوع كانت للمسجد بمثابة الأعمدة. وعن أنس بن مالك قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب يوم الجمعة يسند ظهره إلى خشبة) (١٣٨)

وعن مسلم بن إبراهيم قال : سمعت الحسن يقول : لما أن قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جعل يسند ظهره إلى خشبة ويجثت النمرة (١٣٩) وعن أبي بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرب إلى جذع إذا كان المسجد عربشاً وكان يعطى إلى ذلك الجذع (١٤٠)

وكان ارتفاع جذع المسجد حينئذ حسب ما أحونا ابن عبد الله من الحجب ما يقرب من ١٠ ٢٠ قد قال : إن طول جذع المسجد في الهواء كان قبل تسقيمه قامة بره شجرة، ولما سقعه الرسول صلى الله عليه وسلم بالحريد فلا بد أن تقهر في طوله زيادة قليلة (١٤١) ومعنى ذلك أن السقف قد بلغ في ارتفاعه ٢٠٥٥ تقريباً كما يذكر أن ابن السجاء حديثاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان طول جذع المسجد بسطة (١٤٢) (قدر قامة الرجل مع رفع اليد إلى أعلى) (١٣١) وم بر طول جذع المسجد كذلك حتى فض صلى الله عليه وسلم (١٤٣)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا خطب يعتمد على قوس (١٤٤) أو عصا قبل أن يتحد المنبر، وكان في الحرب يعتمد على قوس وفي الجمعة يعتمد على عصا (١٤٥)

— المرحلة الثانية —

الجدع والمرق أو المصطبة

نستشف هذه المرحلة مما جاء في صحيح البخاري في قصة إلفك الطويلة حيث جاء منه : «نار الحبان الأوس والحزرج حتى هموا (قصدا الحاربة واستعدوا للزراع) ورسول الله على المنبر فقرأ فحفظهم (تلطف بهم) حتى سكتوا وسكت...» (١٧). وهذه الواقعة كانت في غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق سنة ست وقيل سنة أربع وهي سنة الخندق فيحتمل أن المريسيع وحدث إلفك كانا في سنة أربع قبل الخندق وقيل سنة خمس (١٨).

ويعلق جمال الدين محمد بن الأشعر الجيني على المنبر الذي ورد في هذا الحديث فيقول «لعله منبر كان يوضع له بقعد عليه» (١٩) كما يعلق العلامة الزرقاني على هذا المنبر بقوله : «لا بأس بتسميته منبراً إذ المنبر كما في الصحاح وغيره كل ما ارتفع» (٢٠). ونرى أن وجود منبر على شكل مقعد أو أي مرتفع لا يفي ارتباطه بالجدع الذي سبقت الإشارة إليه في المرحلة الأولى إذ يمكن الجمع بينهما ويتحقق بوجودهما ملتصقين معى النزول الوارد في الحديث الصحيح. ويكون الجذع بمثابة المسند للظهر والمصطبة تحقّق نوعاً من الارتفاع يستوجب النزول عند الضرورة. وهذا ما يسمح تماماً مع ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان يعصب الناس في شأن حديث إلفك الذي وقع كما أسلفنا في السنة الخامسة للهجرة. وقد نص في هذا الحديث على النزول.

— المرحلة الثالثة —

المنبر الخشبي عرفنا فيما سبق أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب قائماً (على لأرض) إلى جذع من جدوع السحل في المسجد ثم تنقل من هذه المرحلة إلى الخطبة على مرتفع أو مصطبة مع استناده إلى الجذع. والآن لنصل إلى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل الخطبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهي على المنبر الخشبي. وسنحاول استقصاء كل ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن هذا المنبر الخشبي لمعرفة أسباب اتخاذه صلى الله عليه وسلم له ومادته وشكله وارتفاعه ومكانه وصاحبه.

عن عبد الله بن عمر قال «كان جدع في المسجد يسد رسول الله ظهره إليه إذا كان يوم الجمعة أو حدث أمر يُكلّم الناس فيه، فقالوا ألا جعل لك يا رسول الله شيئاً كقدر قيامه قال لا عليكم أن تقوموا فقموا له منبر ثلاث مراق فقام فجلس عليه... الخ» (٢١).

وعن نافع عن ابن عمر أن نجيماً الداري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما كثر
الجمعة : «ألا تتخذ لك منبراً يحمل عظامك ؟ قال بلى فأتخذ منبراً» (٥٢)

وعن ابن عباس : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطب إلى خشبة، فلما كثر
الناس قبل له لو كنت حطبت منبراً وكان بالمدينة غار واحد يقال له ميمون .» (٥٣)

ويقول البيهقي : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إذا حطب
إلى خشبة ذات فرستين قال أراها من دومة - كانت في مصلاة، وكان يتكلم فيها، فقال
له أصحابه يا رسول الله : إن الناس قد كثروا فلو اتخذت شيئاً تقوم عليه إذا حطبت يراك
الناس فقال ما شئت. قال سهل - ولم يكن بالمدينة إلا تجار واحد قال فذهبت أنا وذلك سحار
فقطعتنا هذا من منبر من ثمة، قال - فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنت الخشبة» (٥٤)

وروى أبو داود في سننه من حديث عبد الله بن عمر : «أن النبي صلى الله عليه وسلم
ما بدن قال له نعم الداري : «ألا تتخذ لك منبراً يا رسول الله يجمع لك يحمل عظامك ؟ قال :
بلى. قال فأتخذ له منبراً مرفقتين».

وروى عن أبي الزناد أنه عليه السلام كان يحطب يوم الجمعة إلى جدع في المسجد فقال :
يا أبا القيام قد شق علي وشكا ضعفاً في رجله فقال له نعيم الداري وكان من أهل فلسطين :
يا رسول الله : «أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام. قال فلما أجمع دواء الرأي من أصحابه
على اتخاذه قال العباس بن عبد المطلب : إن لي علماً يقال له كلاب أعمل الناس فقال له
النبي صلى الله عليه وسلم فمره بعمل فأرسل إلى أئمة المدينة فقصعها ثم عملها درختين ومجلساً
ثم جاء بالمنبر موضعه موضع المنبر اليوم ثم راح إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة
» (٥٥)

وعن ابن أبي شيبة قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرب إلى جدع
بد كان المسجد عربشاً وكان يحطب إلى ذلك جدع، فقال له رجل من أصحابه يا رسول
الله هل لك أن تجعل لك شئ تقوم عليه يوم الجمعة حتى يرك الناس وتسمعهم حصنك
قال : نعم فصنع له ثلاث درجات الثلاث على المنبر» (٥٦)

مما تقدم من أحاديث يتبين لنا الأسباب الحقيقية لاتخاذ النبي للنمر الخشبي وهي :
١ - رغبة المسلمين في مشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحطبهم لأن رؤية الخاطف
تؤثر تأثيراً كبيراً في نفوس السامعين

٢ - أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد بدن في أواخر أيامه مما جعل الوقوف يصعب

عليه وهو يغضب فكان المنبر هو الوكيل المناسب لإتيانه شيء من هذه الحجة الخاصة
كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو في هذه الفترة من ضعف في راحتيه جعل
يقفون يشق عليه ويلزمه شيء يتيح له نوعاً من الراحة

٣ كان عدد اصحابي قد كثر ومعروف أن ارتفاع المكان الذي يغضب عليه الحجاب يساعد
على إجماع العدد الكبير ويتيح لهم فرصة رؤية مخاطب وتأثير بكلامه

أما عن مادة المنبر ونوع حشيه فيوضحها الحديث التالي

«عن أبي حازم بن دينار أن رجلاً أتوا سهل بن سعد ساعدي وقد امتروا في المنبر مما
عوده ؟ فسألوه عن ذلك فقال : والله إني لأعرف مما هو . ولقد أتته أول يوم وصبح وأول
يوم جلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى فلانة امرأة قد سماها سهل - لمري علامك التحار أن يعمل لي أعواداً أحلس عليها
إذا كلمت الناس . فأمرته فعملها من طرفاء العباءة ثم جاء بها فأرسلت إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فأمر بها فوضعت ها هنا . ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليها وكثر وهو عليها ثم كعب وهو عليها ثم رل القهقري فسجد في أصل المنبر ثم عاد
فلما فرغ أقبل على الناس فقال : أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتمروا وتعلموا صلاتي» (٥٧)

ويعلق ابن حجر العسقلاني على عبارة «عملها من طرفاء العباءة» أنها في رواية سفيان عن
أبي حازم «من أثلة العباءة» ولا معاصرة بينهما فإن الأثل هو الطرفاء» (٥٨)

أما عن شكل المنبر الخشبي وارتفاعاته فقد زودنا بها المسموذي بقلاً عن ابن ربيعة فيقول :
«وطول من النبي صلى الله عليه وسلم حاصة درعان في السماء وعرضه درع في درع،
وتريعه سواء، وفيه مما كان يلي ظهره إذ فعد ثلاثة أعواد تدور . وطول المجلس - أي مجلسه
صلى الله عليه وسلم من المنبر - شبران وأربع أصابع في مثل ذلك، مربع، وما بين أسفل
قوائم منبر النبي صلى الله عليه وسلم، الأول إلى رمانته خمسة أشبار وشي، وعرض درجه
شبران وطولها شبر وصوله من ورثته - يعني محل الاستناد - شبران وشي، فيؤخذ من ذلك
أن امتداد المنبر من أوله - وهو ما يلي القلة إلى ما يلي آخره من الشام أربعة أشبار وشي،
لقوله إن عرض درجه شبران وإن المجلس شبران وأربع أصابع وقوفه - وما بين أسفل قوائم
منبر النبي صلى الله عليه وسلم إلى آخره - معاه - من طرف المنبر السوي الذي يلي لأرض
من صرف رمانته شيء يصح يده ككرينة خمسة أشبار وشي، وحدث نحو ذلك وعرضه - وقد

تقدم أن ارتفاع المنبر السوي خاصة درعان، فيكون ارتفاع براميه نحو نصف ذراع (٥٩) فلو اعتبرنا طول المنبر هو ٥١ سم وأن الشبر يقدر بنصف ذراع أمكنا وضع نصب المنبر الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو موضح في الشكل (١) أما عن كيفية استعمال الرسول صلى الله عليه وسلم المنبر فكانت على الوجه الثاني

أروى يحيى عن ابن أبي الزناد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس على المجلس ويضع رجله على الدرجة الثانية فلما ولى أبو بكر قام على الدرجة الثانية ووضع رجله على الدرجة السفلى، فلما ولى عمر قام على الدرجة السفلى ووضع رجله على الأرض إذا قدم (٦٠)

ويعني هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خطب وقف على الدرجة الثانية للمنبر وهو بذلك يرتفع بمقدار ذراع عن الأرض (أي ما يساوي ٥١ سم). فلو اعتبرنا طول الرسول صلى الله عليه وسلم يقارب ١٧٥ سم حيث ورد في أوصافه الجسدية أنه كان ربعة صار أقصى ارتفاع للرسول على المنبر هو ١٧٥ سم + ٥١ سم = ٢٢٦ سم ولو عرفنا أن ارتفاع سقف مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزد على خمسة أذرع أي ما يعادل تقريباً ٢٥٥ سم أمكننا إدراك العلاقة بين ارتفاع منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وارتفاع السقف آنذاك، إذ لم يكن ممكناً أن يكون المنبر أطول مما كان عليه مراعاة لارتفاع السقف الطأطأ بصفة عامة. ولعل فيما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده من حديث ابن عباس ما يفيد هذا المعنى إذ قال «وكان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ضيقاً متقارب السقف، فراح الناس (في الصوف) ففرقوا، وكان منبر النبي صلى الله عليه وسلم قصيراً إنما هو ثلاث درجات» (٦١)

أما عن المكان الذي أقيم فيه منبر الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حدده ابن القيم إذ قال «ولم يوضع المنبر في وسط المسجد وإنما وضع في جانبه الغربي قريباً من الحائط (حائط القبلة) وكان بينه وبين الحائط قدر ممر الشاة» (٦٢)

وإذا من حيث صانع المنبر فيمكننا القول بأن اختلاف الروايات وتعدد ما جرس صنع المنبر لا يضرنا في شيء، بل يسر من أن حرفة شجاره كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مردهرة نافقة كما يقول بكتاني في كتابه نظام الحكومة السوية ودليل على ذلك ما مور أمها (٦٣)

أن النبي صلى الله عليه وسلم حاصر أهل حائف وأماه بالتحقيق وكان هو أول

من رمى به في الإسلام.

ب أنه نقل عن كتاب نفحة الخدائق وخمائل في الابتداع ولاحتراع للأوائل أن أول ديانة صغت في الإسلام، صغت على الطائف حين حاصرها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ج أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ثبت ثغرة من مسعود وعيلان من سلعة بن خرش^(٦٤) ليعلمنا صفة العرادات (شيء أصغر من السحيق) وشحيق ولدهابات
أما عن تاريخ صناعة النثر الخشبي للرسول صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر من سعد في لطيفات أنه عمل في سنة سبع هـ. وذكر ابن شحار أنه صنع في سنة ثمان هجرية. وأرى أن صناعة النثر قد تأخرت عن ذلك فقد تكون في السنة السابعة مطلقاً لأن بعض من سبب إليه صناعته لم يقدم إلى المدينة إلا أواسط العام ثمس مثل العباس، وفي العام التاسع مثل نعيم بدرى^(٦٥)

والخلاصة يمكننا أن نخرج من هذا البحث بالحقائق التالية

- (١) أن كل ما ذكرناه من آراء ليكر وكوزويل غريبة عن الصحة وقد فدناها جميعها وأثبتنا أن النثر قد قام بدور ديني هام في الإسلام على عكس ما ذهب إليه بعض المستشرقين، كما أثبتنا أنه لا صحة البتة في القول باقتباس المسلمين شكل منابرهم الأولى من منابر الكنائس.
- (٢) أن اشتقاق كلمة «نثر» من الخيشية لا يقوم عليه دليل، وقد وضعنا ذلك باحتمال ورود الكلمة من الأصل الشامي الذي خرجت منه العربية والخيشية. أو أن الكلمة عربية جاءت عن طريق الاشتقاق.
- (٣) أن بعض الأساندة من العرب قد ردوها بعض أقوال المستشرقين ولم يكتفوا أنفسهم مؤنة الدراسة الجادة للأحاديث الصحيحة أو أبدوا آراء ثبت خطأها.
- (٤) أن النثر النبوي قد تطور تدريجياً من الصورة البدائية التي تمثل الجذع والرق أو الجذع والمصطبة إلى صورة أكثر تقدماً تحقق هدفاً إسلامياً واضحاً وهو الإسماع وحسن التأثير في المصلين، فضلاً عن تناول القضايا الهامة التي عرضت للمسلمين كحادثة الإفك، كما حقق النثر الراحة للرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان يشكو ضعفاً أو ألماً في رجله واستوجب ذلك القعود الذي حققه النثر له.
- (٥) أن ارتفاع النثر النبوي ما كان من الممكن أن يزيد على ما هو عليه لارتباط ذلك بارتفاع سقف المسجد النبوي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم



لوحة رقم ١٠ - المرأة الذي كتبت كتيب في دير رجا سفاردا
تسبوا ورجع إلى ثقب لسان ليلادي

الحواشي

- [illegible]

- [illegible]

• ثبت بمصادر ومراجع البحث •

أولاً : العربية :

- (١) ابن الأثير إمام الدين محمد بن الأثير رحمه الله، شرح كتاب بعضه المأثور وبعضه المأثور في تفسير النصوص والسير والتأريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٣٣٠هـ.
- (٢) ابن تيمية رحمه الله، أبو حامد يوسف بن عبد الوهاب، الجوامع المأثورة في علوم الفقه والتاريخ، ج ١، مطبوعة دار الكتب.
- (٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح البخاري.
- (٤) ابن حجر رحمه الله بن محمد بن حجر بن حجر بن حجر، مسند أحمد، ج ٣، بيروت.
- (٥) ابن عسقلاني رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، كتاب الاستبصار في معرفة علماء الأئمة، مسند ابن حجر العسقلاني في شرحه والتوضيح، بيروت، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (٦) ابن القيم رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، زاد المعاد في عدة من الأعمال، شرح العلامة الزرقاني على النواصب القديمة للتصوف.
- (٧) ابن منظور رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، لسان العرب، ج ٢.
- (٨) ابن القيم رحمه الله، فقه القبر في أحوال المصيرين، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (٩) ابن الجوزي رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، التلويح في تاريخ المدينة.
- (١٠) برهان الدين (G. Bergstrasser)، التلويح في تاريخ المدينة، جامعة القاهرة، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١١) البيهقي رحمه الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن أحمد، تاريخ الخلفاء، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١٢) حسين مونس، الشاهد، العدد ٣٧، ص ٣٧، تاريخ الأول، ١٣٩٠هـ، ج ١، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١٣) الدارمي رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، سنن الدارمي، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١٤) الزرقاني رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، شرح الزرقاني على النواصب القديمة للتصوف.
- (١٥) زكي محمد حسن، فقه الإسلام، ط ١، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١٦) السهري رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، فقه الإسلام، ط ١، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١٧) السهري رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، فقه الإسلام، ط ١، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١٨) عبد الله عبد العزيز، تحت عنوان: نشأة الشعر، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (١٩) علي الحادي، شعر العرب في العصر الأموي، ط ١، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (٢٠) أبي حمزة محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد، شرح صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت.
- (٢١) الكافي رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، كتاب الكافي، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (٢٢) الكندي رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، كتاب الكندي، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.
- (٢٣) القروي رحمه الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، فقه الإسلام، ط ١، مطبوعة دار الكتب العلمية، ١٣٩٠هـ.

ثانياً : الأجنبية :

- (1) Cresswell K.A.C., Early Modern Architecture, Vol. 1, Hacker Art Books, New York, 1979.
- (2) Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 919, 149.
- (3) Sauvaget, (Jenat), la Mosquée Omeyyade de Médine, Paris 1947.

